جمالية القصص القرآني ودلالاته في الشعر الجزائري المعاصر

عثمان مقيرش
أستاذ محاضر - ب- قسم اللغة والأدب العربي
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

ملخص:

يعدّ الرمز أحد أرواح الخلق الإبداعية في الشعر، لذلك لجأ إليه الشعراء والأدباء ليشكلوا منه صورا إبداعية، تزيد النص شعرية وفنية، وقد صار الرمز ضرورة ملحة تمليها روح العصر، حتى أصبح بمثابة القناع الذي يختفي وراءه الأديب/ الشاعر، ليبلغ من ورائه أفكاره ورؤاه.

والقصص القرآني أحد هاته الرموز التي تأثر بها شعراؤنا الجزائريون، حيث وظفوه في أشعارهم لأجل تبليغ رسالتهم، بما تمليه عليهم المرحلة الحرجة، التي مرّت بها البلاد سنوات الأزمة الأمنية التي ضربت البلاد.

ومن بين رموز القصص الموظفة نجد:

قصص: سليمان عليه السلام، وبلقيس ملكة سبأ، موسى عليه السلام مع العصا، ورؤى يوسف عليه السلام، وقصة يونس عليه السلام.

إن أغلب القصص القرآني الذي ورد ذكره وتوظيفه في شعرنا المعاصر، لم يتجاوز تقريبا هذه الرموز: قصة سيدنا سليمان وبلقيس ملكة سبأ، وسيدنا موسى مع العصا في البحر، ورؤى سيدنا يوسف، وقصة سيدنا يونس عليه السلام.

وهذا ما ذهب إليه "مُحَمَّد أركون" في بعض دراسته واجتهاداته، في قراءاته لأدبية القرآن الكريم حيث يقول: "ولأن اللغة الدينية تتميز عن اللغات في أنها تعرض صورا رمزية للحياة أكثر مما تقدم تعابير مباشرة عن الحياة والوجود، لقد اكتشفت اللغة الدينية بشكل فريد نادر المثال، الرمزية الدينية"[1]، ولإضفاء نوع من الثقافة والوضوح في مثل هذا الرأي ما ذكره ابن عربي في تفسير الرموز القرآنية: "أما الأرواح فيرمز لها ابن عربي **بجبريل ومُحَمَّد**، من حيث أن **جبريل** هو الملك الموكل بالنفخ في الأرحام,...ومُحَمَّد هو الحقيقة الروحية، التي هي أصل كل الأرواح في العالم والتي توجد كل أرواح العالم، في حقيقته بالقوة ويرمز ابن عربي للأرزاق **بميكائيل وإبراهيم**"[2].

القصص القرآني:

يختلف القصص القرآني اختلافا جذريا عن القصة الفنية، كونه جاء لغرض مخصوص، وهدف منشود، خال من كل تهييج لعاطفة، أو استجابة لرد فعل، أو إمعان لخيال، ولذلك وصفه القرآن الكريم بقوله:وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادكَّ[3].

جاء في مفاتيح الغيب: "اعلم أنه تعالى لما ذكر القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة:

الفائدة الأولى:

تثبيت الفؤاد على أداء الرسالة وعلى الصبر واحتمال الأذى، وذلك أن الانسان إذا ابتُلي بمحنة أو بلية فإذا رأى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال: المصيبة اذا عمت خفت، فإذا سمع الرسول (ص) هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا، سهل عليه تحمل الأذى من قومه، وأمكنه الصبر عليه.

والفائدة الثانية

قوله: "وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين"[4].

إذا فمن أهداف القصص القرآني تثبيت قلب النبي (ص) بقصص من الرسل والأمم، ثم الحق مما نزّله عز وجل وكذلك تذكير المؤمنين، ووعظهم من أجل اتباع سنن الله، وطاعته والخوف منه.

فالقصة القرآنية إذا "ليست خاطرة، ولا تسجيلا لصورة ولا بسطا لعاطفة إنما القصة فيه وسيلة من الوسائل الكثيرة التي استخدمها لغرضه الأصيل، وهو التشريع وبناء الفرد والمجتمع"[5].

وقد تأثر شعراؤنا الجزائريون المعاصرون بالقصص القرآني، الذي ورد مع الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

1. **موسى عليه السلام:**

ذكر سيدنا موسى كثيرا في الشعر العربي عامة والشعر الجزائري خاصة، كونه تعرض لكثير المحن والابتلاءات، والمكر والنفي والتشريد، مما جعله معادلا موضوعيا لكثير من القضايا العربية، التي اغتنم الشعراء توظيفها وإبلاغها، تخفيفا لمعاناة الفرد العربي من جبروت السلطان، أو تحفيزا على العمل وعدم

اليأس، أو الهجرة في أرض الله وعدم الرضى بالهوان والظلم والقهر، مما كان يعيشه الوطن العربي والمواطن ذاته، وقد صارت هذه القصص رمزا، إما للتحدي، وإما للصبر أو الشموخ أو على اليأس وغيرها، مما ساهم في إثراء الشعر العربي، ومن ثم أسهم به الشاعر في إيقاظ الحس والوعي القومي للثورة على الواقع والتطلع إلى الأحسن والأفضل يقول "فاتح علاق": في أطلال.

أرسم رجلك حتى تفرّ من القتل

فألق عصاك

أمامك بحر وخلفك روم

والطريق هوان

وصخرتك الآن تكبر يا أيها الثقلان[6]

والمتمعن في هذا المقطع يجده مقطعا كاملا من القرآن الكريم لقوله تعالى: وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكونَ[7]. وقوله في آية أخرى:ﱡ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﱠ[8].

والشاعر قد وظف المعنيين الموجودين في الآيتين سالفتي الذكر.

ففي المعنى الأول: أراد إبطال سحر السحرة، وهم الذين يزينون للحاكم فعله في الرعية، أو هم الحكام ذاتهم، الذين يلعبون على وتر التلاعب بالألفاظ لسحر الناس، واستمالتهم ومحاولة تنويمهم كي لا يعوا ما يقع لهم وللوطن على أيدي هؤلاء السحرة . وهذا معنى أراده الشاعر، وحملت رمزه العصا.

أما المعنى الثاني : وهو رمز القوة مع الثقة في الله، حينما رأى بنو اسرائيل فرعون وجيوشه على مقربة منهم، ويكادون يلحقون بهم قالوا لسيدنا موسفَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فكانت العصا هنا بمثابة النجدة، تنم عن قوة سيدنا موسى وثقته في ربه عز وجل.

يقول المفسرون في هذه الآية ".. لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم ورأت بنو اسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ وجفاء: "إنا لمدركون " فرد عليهم قولهم وزجرهم، وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر "كلا" أي؛ لم يدركوكم،...فلما عظم البلاء على بني اسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه، وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل من فعله، وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته، إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه"[10].

وقد أراد شاعرنا أن يرمز بالعصا، لما كان يمتلكه بعض ساسة البلاد من حلول تجنب البلاد الويلات، ثم رمز بها إلى الشعب، لئلا ييأس، ويستعين في ذلك بإيمانه وقوته، لذا استقى شاعرنا هذه الدلالة الرمزية من القرآن الكريم، كونه يمثل لدى المتلقي المثل القيمي، الذي يرجع إليه ساعة العسر، وبما يمثله أيضا من الجانب العقدي لدى الخاص والعام، عند الانسان الجزائري المسلم بصفة عامة.

ولهذا كان يرى ويوجه السامع بما يعلمه ويعتقده، ولا داعي للخوف، ثمة أمل ثم قوة إيمانية، وقوة عملية تتمثل في المخلصين من أبناء الوطن والشعب قادرة على نزع الفتيل وفك الحصار عن العقل والجسد، وإيقاف نزيف الدم، بما تحمله من حلول، وبما تملكه من قوة حجة، وثبات منهج، ولذلك فكل الحواجز النفسية سوف تتحطم، وتمحي ويترسم الطريق وسنصل في النهاية إلى بر الأمان، وقد استطاع الشاعر، بما يملكه من حنكة وحبكة أن يوصل رسالته إلى الجمهور/المتلقي، بما يعرفه ويصل به إليه بخبرة فنية وصياغة لغوية عرف كيف يوظفها في شعره.

كما ذكرت أيضا قصة سيدنا موسى ولكن هذه المرة ليست مع "العصا" ولكن مع "السامري" ومع "الطور" أيضا.

يقول مصطفى دحية في: استهلالات من آية الماء.

سفه هذه الخطب اللهيبة

حين يسيجها الماء

والحمأ السامري

إني على طور مرثيتي أتجلى[11]

إن شاعرنا في هذا المقطع من القصيدة يصور مأساة سيدنا موسى عليه السلام، حين ذهب لملاقاة الله عند "جبل الطور"، وخانه "السامري" في قومه فأخرج لهم من قبضة الرسول جسدا له خوار، وقال لهم هذا هو إلهكم وإله موسى قال تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ[12]، وقال تعالى: قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [13].

إن قصة سيدنا موسى رغم ما فيها من متعة فنية وطاقة تعبيرية تنم عن عظمة لغة القرآن، إلا أنها صارت رمزا لدى شعرائنا، فسيدنا موسى عليه السلام كابد الكثير من أجل الدعوة، وصبر، واحتسب وصارت أدواته القصصية هي الأخرى رموزا فنية دلالية، كالعصا، الطور السامري، المدينة السحر.

وفي هذا النموذج الذي بين أيدينا نجد رمزين آخرين غير العصا هما: الطور رمز القوة والثبات، والعلو، ثم رمز السامري رمز الخيانة .

فالشاعر حين يذكر "الخطب اللهيبة" والتي يعني بها لغة الخشب التي كان يستعملها الساسة، أو الخطب الدينية التي كان يسوقها دعاة الفتنة، لا تجدي نفعا بقدر ما تزيد من لهيب واحترام البلد، ثم وجود رمز آخر، السامري الذي كان يشوه الحقائق – رمز أعداء البلاد من الداخل والخارج- ويزيفها، لغرض استمرار حمّام الدم، النزيف الذي كان ينخر جسد الأمة.

من خلال سرد هذه القصة الرمز، أراد مصطفى دحية أن يبلغ الأنا والهو، والكل عما يحيط بالبلاد من مهالك، وجب التصدي لها، ولذلك قال : أتجلى على الطور، أي حجتي في هذا وضوح ما لا يخفى على كل ذي بصر وبصيرة، ولذا لابد من النظر إلى القيم والثوابت والذود عنها، كي نحمي الوطن ونقف كالجبل الراسي في أعماق الأرض، ونمنع حدوث الكارثة/موت الوطن.

وقد متح شاعرنا من آي الذكر الحكيم رموزه، كونه يعي ما يقول، وكذا وعيه بأن الرسالة بهذا المدلول ستصل حتما للمتلقي/المرسل إليه، ويكون بالتالي قد أدى ما عليه تجاه نفسه ووطنه.

فسيدنا موسى عليه السلام هو الآخر، أراد تبليغ الرسالة رغم العنت، الظلم ونكران الجميل، ورغم وضوح الرؤية في التجلي الذي ذكره الله حينما تجلى للجبل كذلك الرؤية واضحة ومتجلية في الفتنة، التي كانت تفتك بالبلاد من جميع النواحي، غير أن أرباب المكر والكيد، لم يأبهوا بذلك، وعموا وصموا. ودور الشاعر كمبلغ وكحامل رسالة أن يصدح بالحق، وينادي لعله يجد آذانا واعية وقلوبا فهمة، فتكفكف الدموع، وتضمد الجراح وتهدأ العاصفة التي ضربت الوطن أليس الشاعر نبيا !؟.

2. **يوسف عليه السلام/ الرؤيا:**

ترددت كثيرا قصة سيدنا يوسف عليه السلام، في شعر الشعراء منذ فجر الإسلام غير أنها لم تأخذ الشكل الذي أخذته الآن في شعر شعرائنا الحداثيين ومنهم الجزائريين حيث صارت القصة رمزا منفردا بذاته، عن باقي الرموز الدينية الأخرى، ولعل أهم ما في هذه القصة من رموز زليخة، يوسف، الرؤيا السجن، الملك، الحب... .

يقول منير مزليني في: رؤى يوسف

ويوسف الحزين في صلاته..

يبتهل:،

يا أبتي ...

إني أرى خلوتي صوامعا..

وإخوتي في الجب يسقطون كالمواجع..

وما أراني أستطيع!

يا أبتي...

الأرض لا تدور في مسارها..

والناس لا يقاومون..

لا يغضبون..

لا يفرحون

...

يا أبتي إني أرى ما قد يكون[14].

إن هذه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، ثم رآها بعده الشاعر مجازا لا حقيقة في سورة يوسف.

قال تعالى: إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝[15].

إن هذه الرؤيا اليوسفية الأصلية للنبي يوسف عليه السلام، هي التي استقى منها شاعرنا رؤياه، بيد أن رؤياه لم تكن تماما كما الرؤيا القرآنية، حيث رآها في الخلوة، في أحلام يقظة، وليس في منامه، مع أن كلتيهما رؤيا، ثم إن الشاعر قد صبغها بصبغة الحزن كما أنّه لم يكن صاحب الجب، ولم يلتقطه السيارة، فالساقط هم الإخوة، وهو لا يستطيع إنقاذهم، كما يضيف إليها رؤى أخرى ماثلة أمام سيرورة الأرض غير المنتظمة، ولا الصحيحة، الشمس لا تدور في مدارها... ثم يختمها إنى أرى ما لا يكون.

لقد صار إذن هذا الحلم رمزا شعريا خالصا، وصار النبي يوسف هو الآخر رمزا ولكنه في نظر الشاعر، رمز الحزن، رمز الضعف وعدم القدرة على التغير، مع أن العارف بعواقب الأمور ونهايتها.

فالشاعر عضد رؤياه برؤيا معادلة لها من حيث الأحداث تقريبا. ومعاكسة لها في الاتجاه، فالأولى رمز البشرى والرفعة، بينما الثانية دليل الضعف وعدم القدرة على مواجهة الواقع. ورغم ذلك فهو يريد من الآخر/المرسل إليه/جمهور المتلقين فهم الكود /الشيفرة لفك الرمز، والوثوب ناصحين لتغيير ما يجب تغييره وعدم الاستكانة للانهزامية، والرضى بالواقع وهذا ما لا يرضاه صاحب الرسالة/ المبلغ/ الشاعر "منير مزليني" بل غيره من الشعراء الآخرين.

كما نجد أيضا رمزا آخر من قصة يوسف عليه السلام، وهو رمز العشق والمحبة المخلصة التي بلغت حد التجاوز، وذلك في شخص زليخة امرأة العزيز التي هامت بحب سيدنا يوسف عليه السلام وشغفت به حبا.

قال تعالى: وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ[16].

وقد نالت هذه الحادثة في القصة النبوية حظها في الشعر العربي عامة والجزائري خاصة من ذلك قول إبراهيم صديقي في : أرصفة الحلم

أيا صاحبي السجن فسّر

أميمة ما راودتني

ولكنها قدّت القلب

والشاهد المقلة الساهرة

وقيل افترقنا

أيستطيع أيا وأن يقنع الورد أن الشذا

لحظة عابرة؟..[17]

هي ليست زليخة لكنها بلفظ أميمة، فهي هي، بتعدد المسميات، والذي نحن بصدده هو هذا الرمز الشعري، الذي اقتبسه الشاعر من القصص القرآني كلفظ دال، يمثل حقيقة معيشة. لينقلها إلى مدلول آخر غير مرئي أو غير معروف لدى العامة فأميمة هي زليخة أو زليخ بتسمية أخرى، لكنها في هذا المتن النصي تمثل المرأة الأخرى/الوطن، الذي ألهب حبّه القلوب لذا انزاح الشاعر عن المعنى الحرفي، بالمعنى الفني الجمالي، حين قال ما راودتني.

ثم أكد المراودة بل أكثر من ذلك يقول: لكنها قدّت القلب، بانزياح أكثر جمالية حين وضع مكان القميص المادي الملموس، القلب المعنوي الروحاني، وهذه الجمالية الجزلة توصل إليها شاعرنا من خلال حسه المرهف، ومدى استيعابه للموضوع، وتمكنه من خلال تفجير طاقته الإبداعية في هذا المناب.

وقد استطاع أن يصل بالمتلقي إلى الهدف/القصد، ببراعة سياقية، فنية ليبعده عن القصص الحرفي، أو نقل النصوص لمجرد التحاور أو الاجترار. فأميمة الوطن قدّت القلب وهدت الكيان بهذا الحب الجارف/الإعصار، وأراد شاعرنا لفت نظر المتلقي، بل إبلاغه بهذا لكي لا يفرط في هذا الوطن لأجل نزوة عابرة، أو شهوة لا يرجى منها سوى الويل والثبور.

إن قوة اللفظ تدل على قدرة اختيار فني فائق، يمثل هذه المهارة في الانتقاء يستطيع الشاعر أن يؤثر في المتلقي من أقرب السبل، وأيسرها .فقدّ القلب لفظة دامية أكثر صرامة وصراحة وكشف في نقل الحقيقة، ولو قال قُدّ القميص، لكان شعره مبتذلا، ويكون أقرب إلى السرد والحكي، منه إلى الإبلاغ، وتوصيل الرسالة الملقاة على عاتقه إلى المبثوث له القارئ أو الجمهور المتلقي.

3. آدم عليه السلام:

نال سيدنا آدم هو الآخر حظه الشعر الجزائري المعاصر، استخدمه الشعراء كأحد رموزهم الدينية، التي استقوها من الذكر الحكيم، واعتقد أنه مورد قصته في شعرهم، إنما هو محاولة خرق التراث الديني واستحداثه كرمز له مدلوله ووظيفته في هذا المضمار، ولا ريب في ذلك، إذ إن كثيرا من الأنبياء استعملوا رموزا أو أقنعة. لأجل إيصال الرسالة في قالب إيحائي شيق ودقيق. ولعل أهم ما ميز قصة النبي آدم عليه السلام. خروجه من الجنة بمعية أمنا حواء عليها

السلام. بعد أن نسي ما أوصاه به الله تعالى، وهو الأكل من الشجرة المذكورة في القرآن الكريم. وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [18]، واختلف فيها فمن قائل "أنها شجرة الكرم ولذلك حرمت علينا الخمر. قال ابن عباس، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وجعدة بن هبيرة وقال أيضا بن عباس وأبو مالك وقتادة هي السنبلة"[19]، وثانيهما قصة قابيل وهابيل وقد تقدم ذكرها في رمز الغراب.

يقول "منير مزليني" في قصيدته : قل لآدم

قل لآدم..

غمرة التاريخ حلّت!

وبدا الأمر لحوّا..

أن تساير..

تفتح الشعر الضفيرا

للمراكب..

لا حدود..

لاتخوم..

كلها الأرض تواكب..[20]

إن آدم في هذه المقطوعة جسر بين الشاعر وذاته، بين الأبوة ورمزها وأناه إنه جسر الأبوة ورمزها، لجأ إليه الشاعر بسبب ما ألم به من حزن جراء ما يعصف بالبلاد والعباد ولذلك ذكر حواء هي الأخرى معه كونها كانت سندا له ومؤنسا عن وحشة الوحدة، وشد أزره على ما أصابه من هم ونصب بعد الإبعاد من الجنة.

فهو بذكره إياها استحضر ما فعلته بآدم، كونها أمرته بالأكل من الشجرة، بعد وسوسة الشيطان، وكان المحرّم شيئا واحدا، بينما الآن كل شيء مستباح، مفتوح، لا حدود لا تخوم لا فواصل...، ولمعرفة مزيدا من هذا التوظيف المنفتح على الآخر/ الموضوع / الرمز يستحين قراءة القصيدة كلها.

بينما نجد شاعرا آخرا استدعى القصة كاملة، وشكل منها معادلا لمأساة الوطن، بحيث أن الولد نعمة، والحب المستفيض النقي بين أبوينا آدم وحواء هو لهذه النعمة (الهبة)، غير أن هذه الهبة شكلت فيما بعد مأساة الأبوة، وجلبت الحزن والشؤم بسبب تقاتل قابيل وهابيل ليظفر أحدهما – قابيل – بأخته، بدل هابيل فقتله، ونغّص العيشة على كل العائلة.

يقول "حسين عروس" في: النحلة أنت والطلع أنا.

قبل أن يكتب الله في عمرنا أجل الأنبياء

كان آدم يهوى الجمال ويطرب من خمرة في الجنان

لم يكن شاعرا مثخنا بالجراح

وحواء من منبت الطيبات

...

كلما هم بالذي يسكن القلب صده

غيب السجود عن الشعر والكلمات.

قال يوما: إلام يظل الخلود يعذبني

ويظل البهاء على عرشها رائقا والمكان

وتظل تراقصني ثورتي في القيود

وحواء من منبت الطيبات[21]

إن شاعرنا حينما سرد القصة، لم يكن يعني بها مجرد السرد القصصي والنفحة الشعرية، ولكنها نفحة داخلية هزته، لما آل إليه الحال–حال البلاد– التي كانت تغمرها السعادة، ويعمها الأمن والاستقرار، ثم أفسدت عليها هذه النعمة بيد أبنائها، وهو بذلك حاور النص القرآني المعني الذي يريده، ووظفه بحدسه

وحنكته وحذقه الشعري، فجعل من القصة معادلا موضوعيا لحاله وحال بلده، وكم كان الأمر فضيعا حينما يكون الخراب، والهلاك ناتج أو ناجم عن فتنة داخلية، أبطالها أبناء العائلة الواحدة /الوطن .

وقد استطاع الشاعر أن ينقل المأساة الأولى/خلق البشرية، وينسج على منوالها قصيدته الرمز، ليوصل الرسالة للمتلقي في قالب فني راق، وليشعره أكثر بالمسؤولية تجاه نفسه ووطنه.

فالمأساة الأولى قد تكررت، والحب الأول قد أفسدته يد العبثية والبطش فحوَّل السكون والطمأنينة إلى فوضى عارمة وحزن دفين، إننا لا نكاد نبعد عن الحقيقة، إذا ما قلنا أن تشرّب شعرائنا الوعي الديني، هو ما ولّد فيهم هذا الإبداع الفني، وجعلهم أوعى بالرسالة من غيرهم من شعراء الأمصار الأخرى .

4. سليمان عليه السلام:

لم تكن شخصية سيدنا سليمان عليه السلام بمنأى عن التوظيف في الشعر الجزائري في الفترة النموذج – ولا بأقل تعبير من غيرها من الشخصيات النبوية السالفة الذكر، فلها هي الأخرى رمزها ودلالاتها التي ارتبطت بها، وذكرها القرآن الكريم كالفهم مثلا قال تعالى : فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ[22].

وكذلك فهم لغة الطير قال تعالى: وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ[23]. إضافة إلى قصته مع ملكة سبأ، ومع "الهدهد" الذي جاءه بالخبر فكان رمزا هو الآخر، ولقد تناولناه في قصص الحيوان في هذا الفصل، وترمز الملكة بلقيس إلى الحكم العادل المبني على أساس الشورى،قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ[24] وقصته أيضا مع النمل وغيرها ونحن هنا في هذا المقام لسنا بصدد التطرق إلى مثل هذا، ولكن فقط لأخذ الدلالة، وسنلوذ بالنص، تأكيدا لما سنقوله، أو قاله شعراؤنا، وكمثال ندلل به في هذا المضمار.

يقول "عاشور فني" في : اللآلئ.

قد ثرت بالصمت

واخترت ما تشتهي من لغات الفؤاد

وأطلقت طيرك في كل واد

وفلكك تغزو ثغور البلاد

وباغتني اليوم هدهد شعرك

يحمل أصداف ذات العماد..[25]

فشاعرنا هنا يتمثل برمز سيدنا سليمان الذي أفهمه الله لغة الطير، وجرى له مع الهدهد في القصة السالفة الذكر، ورغم ذلك تدثّر بالصمت أي؛ لم يستطع البوح بمكنوناته ولم يستطع الإدلاء برأيه وفي اعتقادي أن لوذه بالصمت، دليل على تقديره الأشياء، وإعطائه حقها، لذلك اختلط عليه الأمر، مع الفتنة المستعصية، التي احتار فيها الحليم.

ثم يردف كلامه قائلا ومع كل ما تملك فاجأني الهدهد؛ رمز نقل الحقائق/الرسول الصادق، الذي هو الآخر اختلط عليه الأمر، مع أنه يحمل الجواهر واللآلئ–أصداف ذات العماد– في عهد الملكة بلقيس، فهذا الاستدعاء للرمز/سيدنا سليمان، له ما يبرره في شعر "عاشور فني" حيث أراد القول بأنه لابد من حل، فأهل الحل اختلط عليهم الأمر لذلك يجب التعاضد، والتكاتف لدحر الأزمة ودرئها قبل تفاقم الأمور، واتّساع الخرق على الراقع.

كما وظف "عز الدين ميهوبي" قصة سيدنا سليمان أيضا، لكنه ذكر بلقيس الملكة، والتي سبق أن بينا أنها رمز الحكم الراشد العادل.

حيث يقول في قصيدته: عولمة الحب عولمة النار.

وامسحوا بدموعي الذي يتبقى من العز

من خلف هذا النقاب

أغار عليكم...

وأخشى على الكلمات الصدأ

أنا امرأة من "سبأ "

إذا قيل مملكة الخوف ترقص فيها النساء ..

وتشمخ فيها رؤوس الملأ

يكذب قلبي النبأ "..[26]

إن شاعرنا لجأ لرمز ملكة سبأ، كونه الحكم الراشد ويعتمد مبدأ الشورى، والعدل، قد غُيّبا تماما في بلدنا، وسائر البلاد، لذا استدعى هذا الرمز لينفذ من خلاله إلى ذهن المتلقي وينفخ فيه الرسالة/الأمل، لعله يجد آذانا واعية وقلوبا فهمة فيهبوا لنجدة الوطن، مما هو غارق فيه.

ولقد فتح قوله هذا واستقاه من قوله تعالىفَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ[27]. أما ما يدل على رشدها، ورجاحة عقلها وعدالة حكمها، فقد ذكرناه في الآية السابقة، ولمهارة شاعرنا وحذقه تمكن من إيصال الشيفرة ليفهمها المتلقي/المرسل إليه ليعي المطلوب منه والواجب فعله ويكون بالتالي قد أدى ما عليه كمبلغ حامل رسالة التغيير.

5. يونس عليه السلام:

لم يُذكر قصص النبي يونس عليه السلام كثيرا في الشعر العربي ولا الجزائري كبقيته من الأنبياء، كونه لم يصارع الحياة كثيرا غير أنه تلقى الصدود من قومه، فأراد أن يهجرهم لكن الله تعالى أراد غير ذلك، فأصابته فتنة الحوت في البحر، حين التقمه، ثم لفظه ليعود شاكرا حامدا ربه مبلغا قومه، ويتبن له الأمر بعدئذ، قال تعالى: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ،إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ [28].

وقد وظف "مُحَمَّد سعيد" هذه القصة في قصيدته: "تقاطع الطرق الشتائية" حيث يقول:

يا يونس الإبحار ملحمة

متى يلقيك حوتك من جديد ؟....

ما ردة الشرع الذي كنت شرعه ؟

من يصاحب غايتك ؟

من كل نافذة توسع جرح منديل

وداع[29].

فشاعرنا حين وظف هذه القصة كان يرمز بها إلى معنى آخر تماما وهو التضحية من أجل الآخر، فصاحب الغاية والهدف لابد له من تضحية في سبيل تبليغ هذه الغاية وهذا الهدف الذي يسعى إليه، وسيدنا يونس كذلك حين كان يبلغ لاقى الصدود والأذى فقاوم ثم ما لبث أن ضعف فقواه الله بعد أن نجاه من الغم –من بطن الحوت – ومُحَمَّد علي سعيد كان يريد للجزائر البعث من جديد أي كما بعث سيدنا يونس، بعد أن التقمه الحوت، وعفا عنه الله بإخراجه من بطنه.

فاستعارة هذا الرمز الديني، أو استدعاؤه من قبل الشاعر، إنما أراد أن يكون هناك بعث من جديد، لردع هذه الردة، ودرء الفتنة، وتبليغ الرسالة كما يجب، وقد استطاع بوعيه الديني، وتمرسه في اللغة، أن يقتبس من القرآن الكريم ويصل إلى المتلقي من أقرب الطرق، فلا بد من استعادة نفس ومواصلة المصاحبة، لإنهاء هذا الإعصار الجارف الذي يعصف بالبلاد والعباد.

6. عيسى عليه السلام:

نالت تضحية سيدنا عيسى عليه السلام هي الأخرى، حظها في الشعر الجزائري المعاصر "فهي الشخصية النبوية التي منحها الله معجزة الإحياء –إحياء الموتى– وشفاء المرضى، وقد اقترن ذكرها أيضا بالرفق والرحمة والطهر والنقاء فضلا عن كونها أصبحت رمزا عالميا في التضحية حتى الصلب– عند المسيحيين– في سبيل المثل السماوية"[30]. وإنقاذ البشرية من الظلم والجبروت والضياع، وقد سرى هذا الرمز الديني في الشعر الجزائري خاصة بقوة، حيث تمثله كثير من الشعراء في أشعارهم، خاصة حادثة الصلب والتعميد وغيرها، غير آبهين للجانب العقدي.

من ذلك على سبيل المثال قول الشاعر عز الدين ميهوبي في: الريح.

سألتني الريح من أخلف وعد الماء

وعمّد بالحناء نوارسه البيضاء

وراح يصيح

الماء دم

الجرح فم

الأرض صليب في المنفى

والطفل مسيح

سألتني الريح

طلعت من وجع "الرايس"

رائحة الأموات

وزهرة شيح.[31]

لقد ذكر شاعرنا في هذه القصيدة، ثلاثة رموز: اثنين هما التعميد والصلب أما التعميد فيعني به التطهير وأما الصلب فيرمز به إلى أن الرحمة قد رُفعت، ولم ترحم حتى الأطفال، صاروا أضحية، وقربانا لأرباب الدم الذين عاثوا فسادا في كل شيء.

فشاعرنا حين ذكر هذين الرمزين، فإنه يعني بذلك أن ثمة رحمة وطهارة موجودتان في البلد الطاهر بدم الشهداء فارحموه ولا تزيدوا مأساته، ويكفي من ضحوا بدمائهم من أجل أن يعيشوا في سلام وأمان وطهر، فلا تخونوا الأمانات وتتنكروا مثل هذه التضحيات، مثلما ضحى السيد المسيح من أجل أمته، حيث يعتقد النصارى أن حادثة الصلب هي تطهير لأمه من الذنوب، ومنهم الغفران.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة سيدنا عيسى، خاصة في هذا الباب حيث يقول المولى عز وجل: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"[32].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين نفى الله تعالى أن يكون اليهود قد قتلوا سيدنا عيسى عليه السلام أو صلبوه، ولكن الله سبحانه وتعالى رفعه إليه ونجاه من كيدهم ومكرهم ، وأكد في نهاية الآية الأولى بقوله وما قتلوه يقينا ومع ذلك يبقى المسيح عليه السلام رمز الطهر والنقاء والتضحية من ألم البشرية جمعاء.

ولذلك وظفه الشعراء، ورمزوا به في أشعارهم ساعة تبليغ الرسالة، وإيصالها للمتلقي/ الجمهور، واضحة المعالم رغم رمزيتها ولا مناص لهم من ذلك فالتلميح أبلغ من التصريح والإشارة تكفي عن العبارة، ولغة العصر تقتضي هذا النوع من الإشارات والرموز في التبليغ والدعوة وغيرهما.

المصادر والمراجع

1. الإسلام، الأمس وغدا، محمد أركون، لوي غارديه، تر: علي المقلد، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط1 1983، ص202.
2. فلسفة التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2003 ص117.
3. سورة هود، الآية: 120.
4. مفاتيح الغيب،تفسير الفخر الرازي،مج1، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،ط1، 1998، ص81
5. التعبير الفني في القرآن الكريم ، بكري شيخ أمين ، دار الشروق ، القاهرة، مصر، ط1 1973، ص18.
6. آيات من كتاب السهو، فاتح علاق، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1 2001، ص 82 .
7. سورة الأعراف، الآية: 117 .
8. سورة الشعراء، الآية: 63 .
9. سورة الشعراء، الآية:61-62 .
10. الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض المملكة السعودية، (ب-ط)، 2003، مج 16، ص32 .
11. بلاغات الماء، مصطفى دحية، منشورات الاختلاف، الجزائر،ط1، 2002، ص42.
12. سورة طه، الآية: 80 .
13. سورة طه، الآية: 87 – 88.
14. قل لآدم، منير مزليني، وزارة الثقافة، الجزائر، مطبعة الجيش،2007، ص63 ،64.
15. سورة يوسف، الآية: 4-5.
16. سورة يوسف، الآية:23- 24 .
17. الممرات، ابراهيم صديقي، دار هومة للطباعة والنشر، ط1، 2001، ص 18 .
18. سورة البقرة، الآية:35.
19. تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، مج 1، ص304 .
20. قل لآدم، منير مزليني، مصدر سابق، ص 27 .
21. النحلة أنت والطلع أنا، حسين عبروس، منشورات دار الحضارة، الجزائر، ط1، 2004، ص48 .

22. سورة الأنبياء، الآية:79.
23. سورة النمل، الآية:16 .
24. سورة النمل، الآية:32 .
25. الربيع الذي جاء قبل الأوان، عاشور فني ،اتحاد الكتاب الجزائريين،ط1، 2004، ص 49- 50.
26. عولمة الحب، عولمة النار، عز الدين ميهوبي، دار هومة للطباعة , الجزائر, 2002، ص56 – 57.
27. سورة النمل، الآية: 22-23 .
28. سورة الصافات، الآية: 139- 145 .
29. جيوب الرذاذ، مُحَمَّد علي سعيد، منشورات أريستيتيك، القبة، الجزائر، ط1 ،2007، ص27.
30. أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، شلتاغ عبود شراد، مؤسسة الثقافة العاصمة مصر، ط2، 1996 ص175- 176.
31. كاليغولا يرسم غرنيكا الرايس، دار أصالة للإنتاج الاعلامي والفني، سطيف، الجزائر، ط1، 200،ص21.
32. سورة النساء، الآية 157- 158 .